

مرجعيات التشكيل الروائي في رواية سيّد الخراب لكamal
Structure references of the novel "mister ravage" by kamel
kerour

* أحلام سيليني¹ ، أحسن دؤاس²
ahlem silini¹ / ahcen douas²

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي.

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)

university 20th august 1955 of skikda -Algeria
a.silini@univ-skikda.dz¹ a.douas@univ-skikda.dz²

تاريخ النشر: 2021/12/25	تاريخ القبول: 2021/08/25	تاريخ الإرسال: 2021/06/28
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

نتناول في هذا المقال موضوعا يرتبط بالبناء الروائي، الذي يعدّ المنطلق الأساسي لتشكيل البنية السردية والجمالية للرواية، ونسلط الضوء على أهمّ المرجعيات التي تتأسس على قوامها رواية "سيّد الخراب" للكاتب الجزائري كمال قورور التي جاءت محمّلة بمجموعة من المتفاعلات النصية ذات التنوّع الدلالي، سنقدم في هذه الدراسة هندسة لهذا العمل الروائي التجريبي المتنوّع من حيث عناصر بنائه والقيم الرئيسية التي تمحور حولها الخطاب الروائي. وتهدف دراستنا إلى استخلاص مرجعيات التشكيل الروائي في هذه الرواية، فهل استطاعت الرواية الجزائرية تجاوز المؤلف والخروج بنص روائي معاصر؟ وما هي أهمّ المرجعيات التي ساهمت في تشكيل بنيتها الفنية؟
الكلمات المفتاح : مرجعية، بناء روائي، تاريخ، تراث، متفاعلات.

Abstract :

In this article, we deal with a topic related to the narrative construction, which is the basic starting point for the formation of the narrative and aesthetic structure of the novel, and we will try to shed light on the most important backgrounds that are based on the strength of the novel: "The Waste's Master" by the Algerian Novelist Kamel Kerour, which came loaded with a set of textual interactions of semantic diversity, and we will present the sketch of this diverse experimental fictional work in terms of its construction elements and the main themes around which the narrative discourse revolved. Our study aims to extract the narrative formation in this novel, and was the algerian able to transcend the ordinary and come up with a contemporary fictional

* أحلام سيليني: a.silini@univ-skikda.dz

texte? And what are the most important narcissists that contributed to the formation of its artistic structure?

Keywords: backgrounds, fictional construction, history, heritage, interactions.



أولاً: مقدمة

يعدّ البحث في مجال الرواية حقلاً واسع الأهمية، وذلك نظراً لتلك الشهرة والذيع اللذان اكتسبهما هذا الجنس الأدبي وتفوّقه على العديد من الأجناس الأدبية، باعتباره الملاذ والخيار الأنسب للمبدع في التعبير عن حاله وحال أمته وما تعانیه من ويلات تطفو على سطح الحياة الاجتماعية، فتتصفح الرواية كل صغيرة وكبيرة لتتمكن من الوصول إلى أعلى درجة من الوعي، والتعبير الأقرب إلى أذهان شرائح المجتمع المتعددة، ونجد الكاتب أو مؤلف الرواية يحترف لعبة التشكيل الروائي الذي يمثل الجزء الأساسي لبناء العمل الروائي وتنظيم عناصره الفنية. وقد عرفت الرواية الجزائرية تحولات كثيرة على المستوى الفني والموضوعي، كما أنّها ارتبطت بالمجتمع الجزائري وما عايشه من انكسارات ويعدّ الكاتب الجزائري كمال قرور أحد هؤلاء المؤلفين المتشبعين بالروح الوطنية، إذ أنّه عكف في جلّ أعماله الأدبية على تعرية الواقع الجزائري، من خلال خرجاته الصريحة ذات الطابع التهكمي واصطبغ لونه الأدبي بقالب عجائي قويّ اللفظ عميق المعنى، امتازت كتابته في مجال الرواية بجملة من الخصائص المتفردة سنجملها في طرحنا هذا بالتطرق إلى روايته "سيد الخراب"

وسنعرض في بحثنا مستوى البناء الروائي وتشكيلاته، انطلاقاً من المرجعيات التي طغت على مضمونها وذلك بهدف الوصول إلى كيفية تحقيق الجمالية الفنية والموضوعية للرواية. كما تهدف هذه الدراسة إلى رصد أبرز المتفاعلات النصية وعلاقتها بالمرجعيات الجوهرية التي بنيت عليها الرواية، وكذا الكشف عن أهمّ المنابع التي استقى منها الكاتب أفكاره ودعّم القضايا التي تخدم نصّه الروائي.

ومن هنا نطرح جملة من الإشكالات أبرزها: ما هي أبرز المرجعيات التي اتكئ عليها الروائي للخروج بهذا الزخم الهائل من الدلالات والقضايا العديدة المطروحة في متن الرواية؟ وكيف استطاع الكاتب مزج هذه المرجعيات في نصّ روائي واحد وما الهدف من وراء ذلك؟ وهل يمكن للنصّ الروائي أن يكون لولا وجود مرجعيات معينة مصاحبة له؟

ثانياً: الرواية والمتفاعلات النصية:

تلجأ الرواية كجنس أدبي متشبع بمنابع الأدب الغزيرة وتميّزها عن بقية الأشكال الأدبية بالخيال المجنح، إلى توظيف كم هائل من المصادر المتنوعة التي تصب في حقلها، فالرواية تعدّ ملتقى لمجموعة من المتفاعلات، بالتالي فهي عبارة عن مجموعة من الأصوات، من خلال استلهاهم الماضي أو التنبؤ بالمستقبل وتختلف كل رواية عن الأخرى من حيث التوجه والهدف، إلا أنّ الرابط المشترك الذي يوحد بينها هو ذلك التشكيل البنائي والمهارة في توظيف المدركات السابقة المتراكمة في ذهن المبدع على المدى البعيد، والتي كان لها بالغ الأثر في تكييف عناصر الرواية وبناءها الفني وتقويم انعراجاتها بأسلوب فخم ملائم لمناسبة الخطاب الروائي الموجه للقارئ، ولا تخلو أي رواية كانت من عناصر تأخذ حيزاً مهماً في تشكيلها فنياً وجمالياً، نخص بالذكر كلا من التاريخ والدين والسير والأساطير والتراث وغيرها واشتملت الرواية التي بين أيدينا على جملة من المتفاعلات النصية أين أجمل الكاتب هذه المتفاعلات في قالب روائي ذو تكييف دلالي واسع.

1) متفاعلات قديمة وحديثة:

"يؤثر استعمال التفاعل النصّي لأنّه أعم من التناص على المتعاليات النصية التي هي مقابل transtextualité عند جنيت لدالاتها الإيجابية البعيدة، فيما أنّ النص ينتج ضمن بنية سابقة فهو يتعلّق بها ويتفاعل معها"¹ فأَيّ نص كان عبارة عن إعادة تشكيل جملة من البنيات في نص واحد يكون يأتي على شكل خطاب حدثي، فكما هو معلوم بأنّ المتفاعلات النصية متعددة في متون النصوص الروائية التي يعمل المؤلف المبدع على استجلاها بطرقه الخاصة مضيفاً بذلك لمسة جمالية لنصّه وإحياء دلالي في الوقت نفسه، ومطبقاً آليات تجريبية حديثة تخدم هذا النص الروائي المقدّم للقارئ في قالب فني متعدد الأوجه موغل في عمق التأويل.

ومن أهم وأبرز العناصر التي تشري النص الروائي "التراث" الذي كان حضوره واسعاً في النصوص الروائية باعتباره مادة أساسية ومصدراً مهماً لخلق نصوص إنتاجية حديثة، بالإضافة إلى الاهتمام الذي عني به التراث من طرف الدراسات النقدية العربية، ففي الجزائر مثلاً نجد الناقد عبد الملك مرتاض لا يفوّت فرصة إلا وتحدث فيها عن المصدر التراثي، "وهذه الرؤية التراثية يمكن أن نحددها من خلال تلك الدراسات التي أنجزها حول بعض كتب التراث مثل: مقامات السيوطي وألف ليلة وليلة-تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية جمال بغداد وغيرها، وهو في كل هذا ينزع إلى التركيب المنهجي المفتوح والمنشور، عوض القراءة المغلقة المتوقعة ذات المنهج الواحد"² وفي خضم حديثنا عن التراث وأهمية توظيفه في الرواية،

سنعرض جزءاً منه في دراستنا لرواية سيّد الخراب والتي تعد رواية حافلة بالمنابع التراثية التي تحاكي الواقع الجزائري وذلك في قالب عجائبي، عرض الكاتب من خلاله جملة من المواضيع المتعلقة بالأوضاع الاجتماعية والسياسية التي عاشها المجتمع الجزائري.

"إن الانفتاح اللانهاضي على الواقع هو الذي يجعل الرواية تتمتع بحرية الحركة والتعبير أكثر من أي جنس أدبي ويبعدها عن التأطير ويهيئ فرصة وجود التميز والاختلاف في كل رواية"³ ومنه فإن الرواية هي الملائم الذي يلجأ إليه الكاتب من أجل النفاذ إلى عمق الواقع والتعبير عنه، نجد في رواية سيّد الخراب جملة من التفاعلات النصية القديمة منها والحديثة، والتي سنأتي على ذكرها في خضم حديثنا عن موضوع "مرجعيات التشكيل الروائي" ومما لا شك فيه أنّ الأديب الجزائري كان مرتبطاً بأحداث وطنه في كلّ المراحل التاريخية حيث تطلبت منه "أن يكون أو لا يكون"⁴ ويعد الروائي الفنتازي كمال قرور أحد الأفلام المتفاعلة مع القضايا القومية، كان يحاول في كلّ مناسبة نزع الستار عن عديد الحقائق وكشف أسراراً ظلت من المواضيع المسكوت عنها، وإذا خصصنا الحديث عن روايته المميزة "سيّد الخراب" فإننا بالكاد سنعرض جملة من العناصر التي وظفها الكاتب باعتبارها تفاعلات إيجابية أثرت الخطاب الروائي العجائبي، ويقصد بالتفاعلات القديمة تلك التي كتبت أو أنجزت في زمن قديم سابق، بينما الحديثة تلك المعاصرة للكاتب والتي عايشها في فترة إنجازها لعمله الروائي، ويسوقنا الحديث عن التفاعلات النصية للخطاب الروائي تلك المرجعيات الأساسية التي ارتكز عليها الكاتب في توليف نصه الروائي وتشكيله تشكيلاً أدبياً غنياً من حيث المصادر المتنوعة ليدخل بهذا عالم الرواية التجريبية من أوسع أبوابه، ومن أبرز هذه المرجعيات والعناصر المساهمة في عملية التكثيف الدلالي "التاريخ، التراث الشعبي (الفولكلور)، الأسطورة والأدب"

ثالثاً: مرجعيات التشكيل الروائي في رواية سيّد الخراب:

يمثل موضوع المرجعيات أحد أبرز التيمات التي يعبر من خلالها العمل الروائي إلى فضاءه الخارجي ويلتقي بقرائه، ويعمل الروائي على تكييف عناصره وفق ما تتطلبه الرواية، في إشارة واضحة منه إلى ضرورة إدراج هذه المرجعيات المساهمة في تشكيل البناء الروائي الذي يقوم على جوانب أيديولوجية فكرية وأخرى فنية جمالية، ومن أبرز المرجعيات الواردة في رواية "سيد الخراب" نذكر:

1) التاريخ

يعدّ التاريخ المادة الخام لكل الأعمال الأدبية خاصة جنس الرواية الذي يستعين بالتاريخ لتوثيق الأحداث من جهة، والتعريف بهوية مجتمع ما، لأنّ التاريخ يساوي الهوية والوجود والانتماء، كما يعتبر التاريخ مرجعية أساسية في تشكيل الخطاب الروائي منذ ظهوره إلى يومنا هذا أمّا "المرجعية هي العالم الذي يحيل عليه ملفوظ لغوي، علامة منفردة كانت أم تعبيراً مركباً، ويكون ذلك العالم إمّا واقعاً موجوداً حاضراً، وإمّا متخيلاً لا يطابق أي واقع خارج التعبير اللغوي"⁵ بمعنى أنّ المرجعية تنفتح على العديد من الدلالات فلا يمكن أن نجد نصاً أدبياً واحداً دون مرجعية معينة، وتمثّل المنطلق الذي تبدأ منه الإشكالية التي تطرحها الرواية أو مجموع الأحداث التي يحويها هذا الخطاب الروائي الذي يتلّون بحسب المواضيع المتناولة، ومن أهم وأحدث المرجعيات التي يتكئ عليها الروائي في تشكيله وبنائه الروائي "التاريخ" كونه المحور الأبرز الذي تجدد فيه الرواية متسعا لها بأحداثها وأزمته وأمكناتها وشخصياتها أيضاً، إنّ الرواية بدون توظيف للتاريخ تعدّ رواية فارغة من محتواها يعترها النقص والإهمال، فالتاريخ يخدم الرواية والرواية هي الأخرى تخدم التاريخ وتعمل على تعريفه لمن يجله، فالرواية تعيد صياغة هذا التاريخ وكتابته في صورة مستحدثة وبتقنيات فنية وجمالية خاصة تعيد بذلك إحياءه في حلة مستحدثة.

إنّ التاريخ جزء من الوجود والانتماء والهوية يلجأ كل كاتب أو مؤلف إلى الاستعانة به في تشكيله الروائي فهو علم تعرف به أحوال الماضيين من الأمم الحالية من حيث معيشتهم، سيرتهم، ولغتهم، وعاداتهم، ونظمهم، وسياساتهم، واعتقاداتهم، وآدابهم، حتى يتمّ بذلك معرفة أسباب الرقي والانحطاط في كلّ أمة وجيل⁶ وفي الرواية التي بين أيدينا نجد نفحات تاريخية مختارة من تاريخ الجزائر في حقبة زمنية سابقة، تعود إلى فترة حكم الجزائر "الأغلبية" أين حاول الكاتب تسليط الضوء على الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في تلك الفترة المضطربة من الحكم، واستطاع أن يمزج كل ما هو قديم بالحداثي في صورة فنية تجسّد الواقع، وتحيي ماضياً يستحق الوقوف عنده ومحاولة ربط حلقة من حلقات التاريخ المفقودة بحاضرنا المضطهد، لأنّ فيه من أوجه الشبه بين كل من الماضي والحاضر، إذ يستهل حديثه في بداية الرواية عن تاريخ مهم في ذاكرة كل جزائري (08 أكتوبر 1988) أين خرج الشعب الجزائري مطالباً حقه في العدالة والديمقراطية، ونلاحظ أنّ رواية سيّد الخراب تضمنت تسعة وعشرين فصلاً أول الفصول الأربعة كان عبارة عن سيرة ذاتية للكاتب، وبعض الفصول أو أغلبيتها كان عبارة عن سرد تاريخي لفترة من الزمن الماضي الذي تحدث فيها الكاتب عن حكم الدولة الأغلبية (800-909م)، مضمناً في سرده "جمهورية الخراب" لابن خشد كوسيلة للوصول إلى الهدف المنشود من كتابة هذه الرواية السياسية التي

وردت في حلة تاريخية، أتى الكاتب على ذكر جملة من الحقائق التي مزجها بجانب عجائبي تهكمي وشخصيات خيالية وأخرى حقيقية، استثمر من خلالها خصوصيات الكتابة الروائية التجريبية، فوجد مثلاً تقسيم الرواية إلى مجموعة من الفصول وتخصيص باب واسع تحت عنوان "جمهورية الخراب" ما جاء في «جمهورية الخراب» للفيثوف ابن خشد رحمه الله.⁷ ولقد استعان الكاتب بهذه الشخصية الخيالية لتدعيم نصه الروائي ومنه اتساع رقعة التخيل، والتعبير بحرية واستقلالية ومنه الخروج بنص روائي يحوي جملة من القضايا والمواضيع التي تعبر عن الواقع بصورة أوضح ولو بطريقة غير مباشرة.

رغم ما قيل ويقال

"لم يقولوا إنّ سلالة بني الأغلب، وهم الغالبون بفضل الله، السلالة الماحدة الفاضلة، سلالة المحاربين المجاهدين الشجعان، الذين اصطفاهم رب العباد، وسخرهم مثل ملائكته لخدمة عباده الصالحين الطيبين، السلالة الشريفة الطريفة العفيفة، قاهرة الأعداء المستبدين⁸ في هذا المقطع التهكمي نلمح ذلك الاستحضار لزمّن حكم الدولة الأغلبية في الجزائر، أين كانت الأوضاع الاجتماعية والسياسية في أسوأ حالاتها، فيه طُمست حقوق الشعب وسُلبت منه حريته، ظروف قاهرة جعلت منه مجرد جماد لا يفكر ولا يعمل ولا يبحث أو يطالب بحقوقه المشروعة، فظاهرا الشعب المغلوب على أمره يكن احتراماً وحبا لسيدهم، (سيد خراب جمهوريتهم التعيسة) أما باطنياً وفي حقيقة الأمر فهم يكونون حقداً وكرهاً دفينين لعدة أسباب، أولها المعاملة السيئة ونهب خيرات البلاد والعباد، قبل أن يأتي الزحف الشيعي وتسقط الدولة الأغلبية وحكّامها الجشعين، "إنّ أهم ما أضرّ بهذه الدولة وكان سبباً مباشراً في سقوطها، هو معاملتها القاسية للشعب وأخذها له بالعنف والتضييق عليه في ضرب المغارم والإتاوات الباهضة، وإثارة مشاعره بالعصبية العربية والتعصب المذهبي⁹ لقد حرص "قرور" على تشريح المجتمع الجزائري وما عاناه من ظلم وجور وطميش في فترة سابقة من الزمن، إذن هو هنا بصدد إحياء الماضي وربطه بالحاضر ولو أنّه لم يصرح بذلك في أسطر روايته، إذ أنّه عمد إلى تغيير أسماء شخصيات روايته وإعادة تشكيل بنائه الروائي في قالب فني تراثي تغلب عليه خصائص موضوعية توضح توجهه وانتمائه.

يعدّ المصدر التاريخي أحد أبرز المرجعيات التي يتكئ عليها الروائي، مع محاولة تحوير بعض المحطات سواء بتغيير أسماء شخصيات رئيسية (كما هو الحال في هذه الرواية) أو بنقل حربي بأدق التفاصيل للأحداث التاريخية، وهذا بحسب ما تتطلبه أحداث روايته فكلّ كاتب وله طقوسه الكتابية الخاصة به ولأنّ التاريخ هوية وانتماء، فهو الاختيار الأوّل لكاتب الرواية من أجل تعريف القارئ بتاريخه الحافل بالأحداث

المختلفة، فلا أمة بدون تاريخ أو جذور تاريخية تمثلها وتنقل لنا طبيعة الحياة والبيئة والظروف السائدة في فترات سابقة، ولقد وقع اختيار الكاتب في رواية "سيد الخراب" على فترة حكم الدولة الأغلبية إلى ذلك التشابه الواقع بين فترة الحكم في ذلك الوقت، وتكالب الحكام على الشعب وبين السلطة في بلاد العرب بعامة والجزائر بخاصة، لأنّ الشعب في كل الأحوال هو من يدفع الضريبة ويكون ضحية الحكم المستبد وساسة البلاد وأصحاب المصلحة والنفوذ، هؤلاء فقط من يحق لهم العيش بكرامة بدون محاسب أو رقيب وبالتالي فالروائي هنا اتخذ من المادة التاريخية وسيلة لطرح أفكاره وإبراز أمهات القضايا التي تشغل الرأي العام.

2) حقل الأدب :

اشتملت رواية "سيد الخراب" على فسحة جمالية من ألوان الأدب أجاد الكاتب توليفها بما يخدم حاجته الفنية والموضوعاتية، نجد ذلك التنوع في المصادر الأدبية التي وقع اختيار الكاتب عليها بدءا بالشعر الشعبي ومنه القصيدة الشعرية ومقتطفات من مجموعة قصصية، إلى أجزاء من روايات أخرى ذات صلة بمضمون الرواية بالإضافة إلى حضور الأمثال الشعبية بشكل مكثف وجليّ، كلّ هذه الأشكال الأدبية ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر أيضا في تقديم الرواية للقارئ في قالب تجريبي حديث، فبقراءة عنوان الرواية "سيد الخراب" تأتي مباشرة إلى أذهاننا مخطوط لابن خشد "جمهورية الخراب" التي هي في الحقيقة شخصية خيالية استدل بها الكاتب في هيكلته نصه الإبداعي، وبهذا الاستحلاب الأدبي من لدن الكاتب تتضح لنا طبيعة الموضوع المعالج في الرواية، على الأقل ليتمكن القارئ من استيعاب توجه فكر الكاتب وإيديولوجيته، وكيفية طرحه للقضايا المتعلقة بالواقع، فنجد في افتتاح للفصل الثاني من الرواية يسرد لنا حالة الأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر أي فترة الثمانينات، وبالضبط قبل أحداث أكتوبر 1988، "التي خرج فيها أبناء الجمهورية لمطالبة السلطة بحرية التعبير وتحسين المعيشة، فواجهتهم بالقمع والرصاص قبل أن تبادر إلى فتح المجال السياسي لتعدد الجمعيات السياسية كما يصفها دستور البلاد...¹⁰ ومن هنا انطلقت فكرة كتابة هذه الرواية التي تعود إلى مجموعة من الأفكار المزدحمة في ذهن الكاتب

(استيقظت باكرا في ذلك الصباح الصيفي من نومي فزعا مرعوبا، أتصبب عرقا في تلك اللحظة المجنونة المشهودة وجدتي أبحث في أدراجي عن أوراق لتدوين ما خطر ببالي من تفاصيل تلك القصة العجيبة)¹¹ وقد حفلت رواية سيد الخراب بمجمل من المواضيع الثرية، أين افتتح الكاتب رواياته بحقبة زمنية

تعود إلى القدم، زمن حكم "الدولة الأغلبية" أين وظف فيها جزءا مهما من أدبنا الشعبي الجزائري ومن أبرز ما ميّز هذه الرواية توظيف الكاتب لقصيدة حيزية لابن قيطون المعروفة في مختلف المناطق في القطر الجزائري، نظرا لأهميتها الكبرى وذيوها في وسط الطبقات الشعبية الجزائرية، لم يجد الروائي وصفا أدق من الذي ورد في هذه القصيدة في وصف جمال "نطفة الجميلة" بطلة الرواية. قالت ستوت:

"عفوا سيدي هذا الذي نبحت عنه امرأة اسمها نطفة في غاية الجمال والسحر والرقّة، لن أستطيع وصفها، مهما حاولت فقط أصفه بما قاله ابن قيطون في حيزية¹²

تسوى ميتين عود من خيل الجويد

ومية فارس زيد غير الركبية

تسوى من الابل عشرمية تمثيل

تسوى غابة النخيل عند الزابية

تسوى خط الجريد قريب وبعيد

تسوى كنوز الدلال باهية الأنجال

تسوى مال النجوع والذهب المصنوع¹³

ليكتمل بهذا الوصف ما يريد الكاتب من ورائه، أي أنّ جمال البنت "نطفة" جمال متفرد بالإضافة إلى ذكائها وفطنتها، ما جعلها محل بحث وفضول سيّد الجمهورية الشرياري المولع بالنساء، والذي طالب بضرورة الإسراع في إحضارها للقصر من أجل قضاء الليلة برفقتها، ومن جهة أخرى نجد القصيدة المعاصرة مجسدة في متن الرواية من خلال قصيدة "حالات" للشاعرة الفلسطينية "فاتنة" التي تحدثت عنها الكاتب في مستهل حديثه "اطلعت متلهفا على القصيدة، تفاجأت أنّها تتحدث عن امرأة أعرفها جيّدا. هذه المرأة ليست إلا نطفة بنت الشيخ الأخجاني بطلة الرواية"¹⁴ وتقول بطلة الرواية على لسان الشاعرة كما ذكرها الكاتب في روايته: «أنا سليلة البحارة المتمردين على الشواطئ. ابنة الموج والذاكرة. آخر من تبقى ممن تنازل لهم شمشون عن شعره فانتفض فتاة بكر. أنا آخر سلالة الأنوثة الطازجة والمعتقة. أفتح ذراعي فيبدأ الكون دورته الأحادية الاتجاه. أبتسم ... فيقطر العسل من شفاهي البكر اللعوب...¹⁵ وتطول القصيدة المذكورة في الرواية التي أتت معبرة على شكل رسالة أرسلتها إلى سيّدنا، ومن جهة ثانية نجد ذلك التداخل في رواية سيّد الخراب مع القصة القصيرة، نوّه الكاتب لأحداث قصة بعنوان "المسغبة" التي كتبت في جوان 1988م قبل أحداث أكتوبر، أين استيقظ من نومه فزعا مدونا ما احتفظت به ذاكرته في تلك اللحظة، ليقرا القصة في اليوم الموالي على أحد الأساتذة والذي كان معروفا بمطالعته الغزيرة ومعرفته الواسعة بتاريخ

الشعوب وتراثها، والذي نصحه بتمزيقها وحذره من نشرها، ويرد الكاتب قوله: «أنا لم اخترع القصة أو أدعي أن عبقرتي كتبها. مثلما قلت في البداية صادقا فقط، استيقظت من نومي وسجلت ما خطر ببالي وعدت للنوم، أبدا لم أدع أي تنبأت بما سيحدث في الجمهورية، صراحة كنت أشعر أن الأمور ليست على ما يرام....أشفقت على نفسي ولم أتجرأ على نشر القصة، تجنبا لأي مكروه يصيبني»¹⁶ ورد هذا المقطع من الفصل الثاني "فصل في تنبيه الخائف" وقد كانت هذه القصة التي تحولت فيما بعد إلى رواية. الملاحظ في هذه الرواية أيضا في بدايتها حديثه عن سيرته الذاتية الأدبية والشخصية، أين ارتكز سياق حديثه على أبرز أعماله الأدبية ومزاولة عمله كصحافي وناشر للمقالات، بالإضافة إلى حديثه عن روايته التي توج فيها "بجائزة مالك حداد" سنة 2009 والتي فتحت له أبواب النجاح على مصراعيها في مجال كتابة الرواية، وتعود قصة كتابته لروايته "سيد الخراب" إلى أجزاء وفصول متناثرة هنا وهناك بعض منها كان جزءا يسيرا من مجموعة قصة لم يكتمل لها أن تكتب "وقائع سنوات فنتوش" التي تسببت له في مشاكل قضائية أدت به إلى التوقيف والسجن نظرا لما تحمله من مواضيع حساسة تخص طبيعة الحكم في البلاد، يقول الكاتب "في سنة 2000 حدثت لي مشاكل في عملي، أوقفت السلطات الأمنية صحيفتي بسبب مقال....شتم مخبرو الشرطة المقرّ وصادروا كل ما وجدوه داخل المكتب بما في ذلك جهاز الماكيتوش الذي نخرن فيه أعداد الجريدة وكل أرشيفها والنسخة الوحيدة من الرواية التي أصبح عنوانها سنوات وقائع فنتوش"¹⁷ ومن جهة أخرى نجد الكاتب يشير إلى مجموعته القصصية "الشعوب التعيسة في الجمهوريات البئيسة" التي جاءت محملة بمجملته من الحكم والعبر لكونها تأخذ نصيبا من سمات الرواية، وما يميّز الكتابة الروائية لقرور طابع التهكم والسخرية في تناول المواضيع المصيرية، بالإضافة إلى جنوحه لتوظيف الواقعية السحرية "أحداث، شخصيات.....، وقد مثلت المرجعية الأدبية نقطة حاسمة في التشكيل الروائي وعنون أحد فصول روايته بـ "جمهورية الخراب" - ما جاء في جمهورية الخراب للفيلسوف ابن خلدون رحمه الله -¹⁸ وفي جميع فصول الرواية نجده يبتدئ كل فصل بعبرة "رغم ما قيل ويقال.... لم يقولوا، ففي هذه العبارة نوع من التنبيه والتنويه بأن هنالك أسراراً يستوجب منا معرفتها. ومن جانب آخر نذكر بأن الكاتب في سياق سرده لأحداث روايته أحدث نوعا من الاستحلاب، وذلك من خلال ذكره لشخصيات روائية معروفة في عالم الأدب على غرار طه حسين، سيد قطب وغيرهم، بالإضافة إلى استخدام جزء من أدبنا الشعبي الجزائري وقد أتى الكاتب بهذه الاستحلابات بهدف إثراء نصّه، فالقارئ الذكي وهو بصدد قراءة وتذوق النص الروائي، يسعى جاهدا للكشف عن أبرز المحطات التي يتوجب التوقف عندها من أجل إلقاء

نظرة على محتواها، فالكاتب هنا مرشد أدبي، يفتح آفاقا واسعة للمتلقي من أجل الاطلاع والبحث عن مكان الغموض.

3) التراث:

يعدّ التراث أحد ركائز كتابة الرواية العربية بعامة والجزائرية بخاصة، كما أنّ توظيف المصدر التراثي في الأدب الجزائري أصبح ظاهرة متداولة وطاغية على كل المستويات، وهو جزء لا يتجزأ من كيان ووجود الفرد "التراث مفهوم ملتبس، فهو يعني في مختلف الأبحاث التي تناولته كل ما خلفه لنا العرب والمسلمون من جهة ويتحدد زمنيا بكل ما خلفوه لنا قبيل عصر النهضة من جهة ثانية"¹⁹ فالتراث جزء من الأدب وتبيل الرواية بتوابل تراثية تتعلق بالدرجة الأولى بانتماء صاحب العمل وتعبّر عن شخصيته وهويته، وهو كذلك مسلك من مسالك التجريب التي يعتمد عليها الكاتب في نصه، فباختلاف أنواعه "التراث التاريخي، الديني، الأدبي، والشعبي" استطاع أن يقتحم جنس الرواية من أوسع أبوابه ويتخذ منها موطنًا له، بل ويعتبر أحد الأساليب المستحدثة لكتابة الرواية بتمازج كل ما هو قديم بما هو حديث لخلق عمل روائي حديث يحمل لمسات إبداعية وفنية.

إنّ التراث له صلة وطيدة بماضي الإنسان وحاضره وحتى مستقبله، إنّ الجزء الأهم الذي يحتفي به الكاتب ويحاول من خلال توظيفه في إنشائه إلى التعريف بكيانه وهويته وانتمائه، ولعلّ الكاتب كمال وبرواياته العجائبية الممزوجة بالواقع المعيش، تستظهر في محتواها ذلك الرابط المتين بينه وبين تراثه المحلي الشعبي والمتوارث عن أجيال، فنلمح في روايته "سيد الخراب" توظيفه لجملة من الأشكال التراثية من بينها نذكر:

أ) **المثل:** والذي يعد من مظاهر الحياة الشعبية شائع الاستعمال بين العامة، "ومعنى المثل قريب من معنى الأسطورة أو الحكاية في القرآن الكريم، يعني الحكاية القصيرة أو الطويلة نسبيا كالأمثال التي نضربها عن حكايات الأمم السالفة وقصص الأنبياء، وقد تعني مجرد صورة بيانية قصيرة فيها لمحات الخيال"²⁰ ومن خلال دراستنا لهذه الرواية نجد حضورا مكثفا لهذا اللون الأدبي المنتقى من حقل التراث والأدب الشعبي، باعتباره جزءا جليلا من ثقافة الفرد العربي وثابت آخر ينفي تبعية جنس الرواية العربية إلى نظيرتها الغربية، ومن بين الأمثلة نذكر: "نتبع الكذاب حتى لباب الدار" (ص23) "إذا جات تجيبها شعرة، وإذا راحت تقطع السلاسل" (ص59) "لا يغرك نوار الدفلى مداير الظلال، ولا يغرك زين الطفلة حتى تشوف الفعايل" (ص85) "السن بالسن

والبادي أظلم" (ص113) "تروح خماسا وتغدو بطانا" (ص65) "المكتوب في الجبين تشوفو العين" "كل عطلة فيها خير" (ص65) "معزة ولو طارت" (ص66) "اللحم من زهر اللي ما عندوش السنين" (ص76). "ما يحس بالجمرة غير لكواتو" (ص35)... فالمثل جزء مهم من تراثنا وأدبنا العربي كما أنّها تزيد في أناقة البناء الفني والجمالي للنص الروائي، كما يذكر عبد الكريم الجهمان في كتاب "الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية" (أنّ المثل في التراث العربي يتعدّى كونه كلمات قليلة شعرية أو نثرية، ليحوي تجربة إنسانية تحوّل في تفاصيلها حكاية مفصّلة تناقلها الناس شفويا أو كتابيا، ووضعت لها شروح كثيرة حديثا وقديما).

(ب) اللغز: يعد اللغز هو الآخر أحد الروافد التراثية التي يوظفها المؤلف في رواياته، ليقحم عنصر التشويق والفضول في متون الأحداث المشكّلة لروايته وبالتالي إثارة انتباه المتلقي، وتعريفه بنموذج مهم من تراثنا العربي الغني بشقّ ألوان الثقافة العربية، نجد الكاتب يضمن لغزا في حوار جمع بين الجميلة نطفة وسيّدنا، قالت نطفة في دلال: «إليك اللغز سيّدنا أمني ألا يغيب عن فطنتك. لتنال نفسك ما تشتهي»

قال سيّدنا: «هات اللغز»

قالت: «إذا انشق السما واش يلاقيه/ وإذا نشف البحر واش يمليه/ وإذا فقر السلطان واش يغنيه»²¹ لكن سرعان ما يأتي حل اللغز سريعا لأنّ سيّدنا عجز عن فك شيفرة هذا اللغز العجيب، أحس في تلك الأثناء بالخرج والحيلة جراء فشله الذريع في إيجاد الجواب للغز، ليذكر جواب اللغز مباشرة .

قالت: «السما ما ينشق والملايكة فيه»

قال: « صحيح »

قالت: «والبحر ما ينشف والويدان تصب فيه»

قال: « صحيح »

قالت: «والسلطان ما يفقر والرعية تخدم فيه»

قال: «صدقت»²² والملاحظ في محتوى اللغز لغته المستعملة والبسيطة التي يعود أصلها إلى العامية لأنّها تعبّر عن الإنسان العربي البدائي، واللغز كان يمثّل جزءا مهما من تراث العرب، ويرد بأسلوب شائق يتطلب شيئا من الفطنة والذكاء من أجل حلّه والتوصّل فك شيفراته الصعبة، ويظل بذلك لونا تراثيا لا ماديا ملموسا ومتجذرا في الذاكرة العربية.

ج) **الحكاية الخرافية:** تشكل الحكاية الخرافية منبعاً أصيلاً للرواية العربية بصفة عامة، أمّا في الرواية الجزائرية فهي تشكّل مرجعية مهمة من مرجعيات الكتابة الروائية الفنتاستيكية، لأنّها أكثر الألوان الأدبية المناسبة لهذا الشكل الروائي، وقد جاءت الحكاية الخرافية في رواية سيّد الخراب في قالب عجائبي يشبه حكايات ألف ليلة وليلة، ونجدها في مستهل فصول الرواية "فصل في ظهور سيد أحمد الرفاعي"²³ أين ظهر شيخ غريب وسط المدينة يدعي أنّه ولد سنة 1704م تزوج خلال ثلاثة قرون 199 زوجة والكثير من الأشياء الخرافية التي يصعب تصديقها، ويتكرر حضور الحكاية الخرافية مراراً ويعود هذا التوظيف للحكاية الخرافية إلى ميول الكاتب إلى الطابع العجائبي، ويمكن أن ندرج رواية سيّد الخراب ضمن ما يسمّى بالرواية الفنتاستيكية التي قوامها العجائبي الخارق للواقع والبعيد جداً عن المنطق، هذا اللون الذي يستعمل تقنية روائية ذكية جداً معبرة بطريقة أو بأخرى عن الواقع.

رابعا: خاتمة:

لقد تمكّن الروائي الجزائري كمال قرور من ترك بصمته الواضحة بفضل عالمه الفنتازي وتوظيفه للخيال ومزجه بالواقع، بدءاً بسرد جزء من سيرته الذاتية في قالب قصصي مشوّق نسج لنا نصاً روائياً بخيوط إبداعية منطلقاً من جملة من المرجعيات التي أكسبت الرواية نصيباً من الشراء الدلالي، تطرق من خلاله لعدة قضايا ومواضيع منها السياسية والاجتماعية، وغيرها في قالب تهكمي ساحر منفتح على العديد من الثقافات، وكما لاحظنا في دراستنا هذه تلك المنابع المتنوعة والمناهل التي انطلق منها الكاتب، أين أفسحت له المجال واسعاً بتعدد المرجعيات ومنه تعدد الدلالات واتساع رقعة الإبداع، فحضور التاريخ والتراث والثقافة الشعبية وجانب من السيرة الذاتية وبعضاً من أجواء الأساطير والحكايات الخرافية، كلّها عناصر ساهمت في إثراء النص الروائي القروري، كما استخلصنا مدى تأثير المرجعيات في هيكلة البناء والتشكيل الروائي، أي أنّها مثلت الانطلاقة الأساسية للرواية، وأدخلتها عالماً زئبقياً يحمل خصوصيات الشكل الروائي التجريبي. ومن أبرز النتائج التي توصلنا إليها نذكر:

1. يعدّ التاريخ عنصراً أساسياً جوهرياً في بناء النص الروائي، وقد تميّزت رواية "سيّد الخراب" بطابع تاريخي عالٍ فيها الكاتب جملة من المواضيع الجوهرية ذات الصلة بتاريخ الجزائر قديماً وربطها بالواقع المعاش.

2. شكّل التراث بأنواعه المادة الخام في الرواية، وأعطى لها أبعاداً فنيّة وجمالية.
3. تعدّ رواية "سيد الخراب" منعرجاً متخفياً في حلة تحكّمية كشفت العديد من الأقنعة وقد وُفق الكاتب في توليف أحداثها ضمن سياقات اجتماعية وأيديولوجية
4. مثّلت المرجعيات باختلافها نقطة انطلاق مهمة للروائي "قرور" أين استطاع الكاتب المزج بين كل من التاريخ، والفنتازيا، والتراث، والأدب، في قالب واحد ومن ثمة ربطها بالواقع.
5. تعدّ الرواية الجزائرية التجريبية ملتقى لجملة من المرجعيات الأدبية والثقافية، التي أثّرت الخطاب الروائي من مختلف جوانبه.
6. تمثل رواية "سيد الخراب" نموذجاً للرواية التجريبية ذات الزخم الهائل من المرجعيات التي ساهمت في تشكيل البنية السردية وعناصر البناء الروائي عامة.

هوامش:

- ¹ سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص98.
- ² فيصل الأحمر: دراسات في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، 2009، ص24.
- ³ محمد شاهين: آفاق الرواية-البنية والمؤثرات- منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص7.
- ⁴ الطيّب ولد العروسي: أعلام من الأدب الجزائري الحديث، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009، ص15.
- ⁵ عبد الرحمان التمار: مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص52.
- ⁶ عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، الجزائر، ص39.
- ⁷ كمال قرور: سيد الخراب، دار غاؤون للنشر والتوزيع، لبنان، 2012، ص33.
- ⁸ المصدر نفسه، ص35.
- ⁹ عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ص275.
- ¹⁰ سيد الخراب، ص12.
- ¹¹ سيد الخراب، ص12.
- ¹² سيد الخراب، ص96.
- ¹³ سيد الخراب، ص96/97.
- ¹⁴ سيد الخراب، ص15.
- ¹⁵ انظر قصيدة "حالات" للشاعرة الفلسطينية فائزة الغرة.

¹⁶ سيّد الخراب، ص13.

¹⁷ سيّد الخراب، ص15.

¹⁸ سيّد الخراب، ص33.

¹⁹ سعيد يقطين: الكلام والخبر-مقدمة للسرد العربي- المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1997، ص47.

²⁰ سالم المعوش: صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة ل (ط، ن، ت) ط1، لبنان، 1998، ص99.

²¹ سيّد الخراب، ص119.

²² سيّد الخراب، ص119.

²³ سيّد الخراب، ص22.